

بعض المعيقات الإستمولوجية للثقافة العربية في مواجهة الدرس اللساني المعاصر

Some Epistemological Obstacles of the Arabic Culture in the Face of Contemporary Linguistic Study

إعداد الدكتور/ سالم الرامي

أستاذ مؤهل، الكلية متعدّدة التخصصات بأسفي، جامعة القاضي عياض، المملكة المغربية

Email: s.rami@uca.ac.ma

الملخص:

من خلال هذا المقال المعنون بـ "بعض المعيقات الإستمولوجية للثقافة العربية في مواجهة الدرس اللساني المعاصر"، يتم التركيز على التحديات التي تواجه الطلبة في ميدان اللغويات عند تناولهم تحصيل المعرفة المتعلقة بالدراسات اللغوية المعاصرة ضمن إطار الثقافة العربية.

نتناول في مرحلة أولى بُعد خصائص وقيم الثقافة العربية استنادا إلى دراسات سابقة تعود للباحث محمد عابد الجابري، ثم في مرحلة ثانية نستعرض بُعد خصائص الممارسة العلمية اللغوية المعاصرة من خلال عرض مختلف النظريات اللسانية المعاصرة. بالنظر إلى البعدين المذكورين، نتناول بعض الصعوبات الإستمولوجية المعاشة ميدانيا والتي تُؤوّل مرَدّها إلى الثقافة العربية أو لطبيعة النظام التعليمي أو هما معا. وبعد طرح كلّ صعوبة، نشير لاختلاف النظريات والمناهج التي تستخدم في الدراسات الغربية مقارنة بالمنهج الذي يستخدمه ذو الخلفية العربية.

من ثم، يناقش المقال كيف يمكن أن تؤثر هذه المعيقات على فهم وتحليل الظواهر اللغوية في الثقافة العربية، موضحاً أنه قد يكون من الصعب العثور على توازن بين الحفاظ على تقاليد ومفاهيم الثقافة العربية وبين الاستفادة من النظريات والتقنيات الحديثة في ميدان اللغويات في المحيط الجامعي كما هو اليوم بالمجال الجغرافي العربي.

وفي ختام المقال، نشدد على ضرورة التفكير في طرق جديدة لدمج الدراسات اللغوية المعاصرة في الثقافة العربية، من خلال التركيز على البحث المشترك والتعاون بين الباحثين من مختلف التوجّهات والخلفيات، لتحقيق تقدم مستمر في هذا الميدان الهام والمتجدد بشكل مستمر.

هذا المقال، بالتالي، يمثل دعوة لتبني توجّه منفتح في الدرس اللغوي، مع التأكيد على أهمية التحليل النقدي للمفاهيم والمناهج الحالية، والسعي نحو تطوير مناهج تعليمية وأساليب جديدة تتناسب مع الخصوصية الثقافية للمجتمع العربي.

الكلمات الافتتاحية: الإستمولوجيا، الثقافة العربية، النظرية اللسانية، الافتراض، الاعتقاد، التراث النحوي العربي.

Some Epistemological Obstacles of the Arabic Culture in the Face of Contemporary Linguistic Study

Dr. Salim Rami

Habilitated Professor in Computational Linguistics, Multidisciplinary Faculty of Safi - Qadi Ayyad University - Morocco

Abstract:

In the article "Some Epistemological Obstacles of the Arabic Culture in the Face of Contemporary Linguistic Study", attention is directed towards the obstacles linguistics students face in the Arabic context. Initially, the study explores the distinctive characteristics and values of the Arabic culture, drawing on Mohammed Abed Al-Jabri's previous research.

The discussion then transitions into a rigorous analysis of modern linguistic practices, highlighting various contemporary linguistic theories. This evaluation forms the foundation to address the epistemological challenges inherent in this field, which are fundamentally rooted in either the Arabic culture, the existing educational framework, or a combination of both. This segment elucidates the disparities in theories and methodologies adopted in Western studies compared to those utilized by individuals with an Arabic background.

Moreover, the article outlines the possible impacts of these barriers on the understanding and investigation of linguistic phenomena within the Arab society. It emphasizes the complexity of establishing a harmonious equilibrium between preserving the Araboic cultural traditions and capitalizing on the developments in modern linguistic theories and techniques prevalent in the current academic domain in the Arabic region.

In conclusion, the article accentuates the necessity of creating novel avenues to incorporate Arabic culture into contemporary linguistic studies. It advocates enhancing collaboration and synergy amongst researchers of various backgrounds, aiming to stimulate continuous growth in this vibrant field. Ultimately, the piece urges an open stance towards linguistic research, emphasizing the critical assessment of existing theories and methodologies, and encouraging the progression of educational strategies that align with the distinct cultural nuances of the Arabic community.

Keywords: Epistemology, Arabic Culture, Linguistic Theory, Hypothesis, Belief, Arabic Grammatical Heritage.

1. مقدمة

1.1. الأهداف والأهمية

يهدف هذا البحث إلى فحص وتحليل بعض المعوقات الإستمولوجية التي تواجه الثقافة العربية في مواجهة الدرس اللساني المعاصر*. يتضمن البحث العوامل التي تسهم في هذه المعوقات، وتقييم كيفية تأثيرها على التفكير العلمي والثقافي في العالم العربي. وتكمن أهمية هذا البحث في فهم القوى والعوامل التي تؤثر على تقدم وتطور اللسانيات في محيط الثقافة العربية. من خلال التحليل الدقيق لتحديد العوائق التي قد تحول دون الابتكار والتفكير النقدي في هذا المجال. إلى جانب ذلك، يُظهر البحث كيفية تأثير هذه المعوقات على ممارسة تحصيل المعرفة اللسانية وبالتالي ممارسة البحث والتعليم في إطارها، وكذلك على الفهم الثقافي والاجتماعي للغة.

إنّ البعد التجريبي لهذا البحث مستمدّ من التجربة الشخصية المعاشة لكاتبه بصفته مدرّسا للسانيات بجامعة القاضي عياض المغربية**.

وفي الختام، يمكن لهذا البحث أن يسهم في تشكيل استراتيجيات وسياسات فعّالة تسعى إلى التغلب على هذه المعوقات وتعزيز اللسانيات كعلم مؤثر في محيط الثقافة العربية، مما يسهم في تقدم الدرس اللغوي والثقافة على حد سواء.

2.1. نطاق البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة بعض المعوقات الإستمولوجية التي تواجه الثقافة العربية في تناولها للسانيات المعاصرة. بالنظر إلى البعد التطوري التاريخي للسانيات في العالم العربي، وكيف تشكلت أسس ثقافة عربية أثرت على المجال المعرفي اللغوي من جهة. وكذلك بالنظر إلى طبيعة المفاهيم الإستمولوجية التي أسست الفكر العربي من جهة أخرى، وكيف تؤثر على كيفية تحصيل المعرفة اللسانية، وكذلك على الفهم الثقافي والاجتماعي للغة.

يقتصر نطاق البحث على الثقافة العربية، مع التركيز على الدول التي تعبر عن هذه الثقافة بشكل كبير. يتضمن البحث أيضًا عرضاً للأدبيات ذات الصلة.

3.1. الأسئلة البحثية

تستند هذه الدراسة إلى مجموعة من الأسئلة البحثية التي تهدف إلى الكشف عن بعض المعوقات الإستمولوجية للثقافة العربية في تناولها للسانيات المعاصرة. تشمل هذه الأسئلة:

ما هو دور الثقافة العربية في تطوير وتكوين اللسانيات؟ يركز هذا السؤال على فهم كيف تؤثر الثقافة العربية في تكوين وتطوير اللسانيات كعلم.

ما هي المعوقات الإستمولوجية التي تواجه اللسانيات المعاصرة في العالم العربي؟ يهدف هذا السؤال إلى تحليل المعوقات والتحديات التي تعترض تحصيل المعرفة اللسانية.

*تجدر الإشارة، إلى أنّ الدراسة المقدّمة هنا، تعكس تجربة جدّ شخصية منحصرة زمانا ومكانا. وبالتالي، لا يمكن اعتبار ما أسفرت عنه بمثابة مستنتجات يمكن تعميمها. علماً أنّ إصدار مستنتجات عامّة يقتضي القيام بدراسات مؤسساتية موسّعة.

**للاطلاع على المضامين وأساليب التقييم المعتمدة تجريبيا، يُرجى الولوج للرابط:

كيف تتجلى هذه المعيقات في سياقات محددة وأمثلة عملية؟ يركز هذا السؤال على استخدام دراسات الحالة لفهم كيفية تجلي المعيقات في سياقات محددة.

ما هي التأثيرات الطويلة الأمد لهذه المعيقات على البحث والممارسة في مجال اللسانيات؟ يبحث هذا السؤال في كيفية تأثير هذه المعيقات على مستقبل اللسانيات في الثقافة العربية.

إجمالاً، توجه هذه الأسئلة البحثية نحو استكشاف عميق للقضايا والتحديات التي تواجه اللسانيات المعاصرة في الثقافة العربية، وتقدم إطاراً لفهم وتحليل هذه المعيقات من منظور متعدد الجوانب.

2. دراسة تحليلية لخصائص وقيم الثقافة العربية

1.1.2 الفهم التاريخي والثقافي

1.1.2.1 السياق التاريخي

يُعتبر التاريخ جزءاً حاسماً لفهم الثقافة العربية وتفاعلاتها مع حضارات أخرى بتأثير الحضارة اليونانية عليها وتأثيرها على حضارات أوروبا وآسيا وأفريقيا، والتأثير المتبادل.

أ. تأثير المنطق والفلسفة اليونانيتين على التنظير اللغوي العربي

لقد أسهمت الفلسفة اليونانية بشكل ملموس في تطوير النحو العربي، خصوصاً في مجال التصنيف والتقسيم. يمكن توضيح هذا التأثير من خلال التصنيف الدقيق للألفاظ باستخدام النحاة العرب أساليب مَقَوْلَة الكلمات الصوتية إلى مجموعات رئيسية مثل الأسماء والأفعال والحروف بدون تقاطعات في ما بينها. وداخل هذه التصنيفات الرئيسية، أُجري تصنيف فرعي على أساس الحركات الإعرابية وغيرها من الخصائص النحوية. وهو ما يجسّد تنزيلاً للأوتولوجيا¹ بوصفها فرعاً من الفلسفة اليونانية يهتم بدراسة الوجود وطبيعة الواقع، وكذلك الكيانات والعلاقات التي تُكون جزءاً منه. كما أنه يبني على أنتولوجيا² مفاهيمية دقيقة تبدأ من البنية العامة المفترضة التي تتفرّع إلى البنية الإسنادية والبنية التلازمية واللذان تتفرعان بدورهما إلى فروع أخرى مما يجعله نظاماً بالمفهوم البنيوي.

بالإضافة إلى تحليل بنية الجمل والعبارات باستخدام المنطق لتحليل الجمل إلى مكوناتها الأساسية، مثل الفاعل والفعل والمكملات التي تأتي بأشكال متعددة وتهدف إلى تحسين فهم الجملة وإثراء المعنى وإنشاء علاقات بين الأجزاء (الأشموني، 2004). لقد فحص النحاة العلاقات المنطقية بين مختلف أجزاء الجملة، وكيف تتفاعل هذه الأجزاء لإنتاج معنى مُركّب مع التحليل والاستدلال لحصر عدد أنماط بنى الجمل مما جعل النحو العربي نظاماً بالمفهوم الصوري. وذلك بتضمّنه صوراً مجردة

¹ في علم الفلسفة، مصطلح "الأوتولوجيا" يشير إلى فرع من فروع الفلسفة يختص بدراسة الوجود وطبيعته. يسعى الباحثون في هذا المجال إلى فهم كيف يمكن تحديد وجود الأشياء والكيانات، وما هي الخصائص التي تجعل شيئاً ما موجوداً. إنها دراسة معمقة تهدف إلى استكشاف مفهوم الوجود بشكل عميق ومُعقّد.

² الأنتولوجيا تُعرّف عموماً كمجموعة مختارة من الأعمال (أدبية أو لغوية أو فنية) التي تم جمعها معاً لتمثيل فترة زمنية معينة أو نمط أو موضوع محدد. في المجال الأدبي، تكون مجموعة من الأعمال التي تعرض مظاهر معينة من الأسلوب الأدبي أو الثقافة في فترة زمنية معينة.

رياضية نذكر منها على سبيل المثال مفهوم الجذور التي قد تكون كامنة أو مهملة في مقابل المستعملة وهو ما شكّل نسفاً افتراضياً بامتياز.

كما أسهمت الفلسفة اليونانية بشكل كبير في فهم وتحليل العلاقة بين اللغة والواقع عند النحاة العرب (السيرافي، 2008). يتبين ذلك التأثير من خلال فهم الوجود من خلال اللغة باستخدامها كأداة لفهم وشرح الواقع. وذلك بدراسة كيف يمكن للكلمات والعبارات أن ترمز للأشياء والأفكار في العالم الحقيقي. كان الإغريق يرون أن اللغة تعكس العالم كما هو، وبالتالي فإن فهم اللغة يمكن أن يساعد في فهم الواقع. اعتمد النحاة العرب على هذا المنهج في تحليل اللغة العربية بربطهم بين الكلمات والأشياء التي تمثلها.

يمكن التمثيل لما تقدّم ذكره بطرح الظواهر الآتية:

- العلاقة بين اللفظ والمعنى:

أثرت الفلسفة اليونانية على كيفية فهم النحاة العرب للعلاقة بين اللفظ والمعنى، وكيف يمكن للألفاظ أن تحمل معاني معقدة تعكس الواقع.

- العلاقة بين اللغة والفكر:

استكشفت الفلسفة اليونانية العلاقة بين اللغة والفكر وكيف يمكن للغة أن تؤثر على الفكر وكيف يمكن للفكر أن يؤثر على اللغة. كان لهذا تأثير كبير على النحو العربي وفهم العلاقة بين اللغة والفكر.

- العلاقة بين اللغة والفضيلة والأخلاق:

في فلسفة بلاتو³، كانت هناك علاقة وثيقة بين اللغة والعالم الأخلاقي والفكري. من خلال استخدام اللغة، يمكن فهم الأفكار الأزلية والوصول إلى فهم أعمق للفضيلة والحق. كان الفلاسفة اليونانيون، مثل أرسطو، يرون أن اللغة لها دور كبير في تشكيل الفضيلة والأخلاق. كانوا يعتبرون أن الألفاظ تعبر عن الأفكار والقيم، وبالتالي فإن استخدام اللغة الصحيح يمكن أن يقود إلى التفكير الأخلاقي الصحيح.

³ تتميز فلسفة بلاتو بعدة محاور رئيسية، نستعرضها كما يلي:

- نظرية الأفكار أو الأشكال المثالية: في فلسفة بلاتو، يُعتبر العالم الحسي مجرد تقليد غير كامل لعالم الأفكار الذي يُعد الحقيقي والأبدي. هذه الأفكار المثالية هي الأشكال الأصلية التي تُشكل الأساس لكل شيء نراه في العالم الحسي.

- الفضيلة والأخلاق: كان بلاتو مهتمًا بشكل خاص بمفهوم الفضيلة وكيفية تحقيق الحياة الصالحة. في رؤيته، يمكن تحقيق الفضيلة من خلال العقلانية والتحليل الفلسفي.

- نظرية العدالة: في "الجمهورية"، يناقش بلاتو مفهوم العدالة ويقدم رؤية لمجتمع مثالي يتميز بالتنظيم والتوازن، حيث يعمل كل فرد وفقاً لطبيعته ومهاراته.

- نظرية الحكم الفلسفي: يقترح بلاتو في أعماله أن الحكام يجب أن يكونوا فلاسفة ملكيين، أي أنهم يجب أن يكونوا متدربين على الفلسفة وقادرين على رؤية الأشكال المثالية.

- نظرية المعرفة: يعتبر بلاتو أن المعرفة مرتبطة بالتفكير في الأشكال المثالية، وأن الرأي (أو الاعتقاد) يختلف عن المعرفة لأنه مرتبط بالعالم الحسي الذي يمكن أن يخدعنا.

أنظر بلاتو. (380 ق.م). "الجمهورية". (ترجمة: أحمد محيي الدين عبد الله). القاهرة: دار المعارف.

- العلاقة بين البلاغة والأخلاق

كان اليونان يعتبرون الخطابة والبلاغة جزءًا من الأخلاق والفضيلة. كانوا يرون أن القدرة على التحدث بإقناع يتطلب فهمًا للأخلاق والقيم الصحيحة.

- العلاقة بين اللغة والعقيدة:

كانت اللغة تعتبر جزءًا من العقائد الدينية عند اليونان بحيث إنّ الأساطير والقصائد كانت وسيلة لنقل القيم الدينية والأخلاقية، وكان الفلاسفة مثل بلاتو يعتبرون اللغة وسيلة للوصول إلى الحقيقة الإلهية.

- اللغة والقوانين:

كان الفلاسفة اليونانيون يرون أن اللغة لها دور في تحديد وصياغة القوانين التي تعبر عن العدل والأخلاق. في "الجمهورية" لبلاتو، يتم استخدام اللغة كأداة لوصف الدولة العادلة والحياة الفضيلة.

بخلاصة، العلاقة بين اللغة والأخلاق والقيم الدينية في الفلسفة اليونانية تعكس الأهمية التي كانت توليها اللغة في الفكر والثقافة اليونانية. من خلال فهم اللغة، كان يمكن الوصول إلى فهم أعمق للأخلاق والفضيلة والدين، وكان هذا التفكير له تأثير كبير على التفكير العربي فيما بعد.

لقد أسست تلك المعالم المذكورة مجتمعة، بالإضافة إلى مؤثرات أخرى ساسانية، بداية لعصر الأنوار العربي الإسلامي التي يمكن تحديده بانطلاق الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الثامن الميلادي، حيث شهد هذا العصر ازدهارًا في مجالات العلوم والفلسفة والفنون. من ناحية أخرى، يعتبر القرن الثالث عشر الميلادي نقطة تحول هامة نحو انحطاط الحضارة العربية، حيث بدأت الدولة العباسية تفقد قوتها، وتلاشت مراكز العلم والثقافة. زادت من حدة هذا الانحطاط الهجمات المغولية وسقوط بغداد عام 1258م، مما أسفر عن فقدان الأمة للعديد من مكتباتها ومراكزها العلمية، وبدء مرحلة من التراجع والتدهور في مختلف ميادين الحياة.

ب. تأثير النحو العربي على أوروبا

أثر النحو العربي على أوروبا يمكن فهمه من خلال عدة محاور، وهي كالتالي:

في العصور الوسطى، أسهم العلماء العرب في نقل العديد من الأعمال الأدبية والفلسفية اليونانية والرومانية إلى أوروبا عبر الترجمة. كانت هذه الأعمال مؤثرة بشكل كبير في علماء ومفكري أوروبا.

- تأسيس علم اللغة في أوروبا

قدم علماء اللغة العرب، مثل السكاكي وابن جني نظريات ومفاهيم في النحو العربي ساهمت في تطوير علم اللغة في أوروبا. وقد استفاد العديد من اللغويين الأوروبيين من هذه الأعمال، مثل سانتشيز دي لاس بروباس (مكي، 2002).

تأسست مدارس وجامعات في أوروبا تعتمد أساليب تدريس نموذج النحو العربي، مثل جامعة بولونيا في إيطاليا وجامعة سلامنكا في إسبانيا. أدخل النحو العربي مفاهيم ومصطلحات جديدة إلى الدرس اللغوي الأوروبي، مثل مصطلحات "المبتدأ والخبر" و"الفاعل والمفعول به". كما أدخل الأساليب التحليلية بما في ذلك التحليل الصرفي والنحوي (السيد، 2006).

أسهم النحو العربي في تحفيز بعض علماء اللغة الأوروبيين لدراسة اللغة والنحو بعمق، وذلك من خلال مطالعة الأعمال النحوية العربية المترجمة.

يمكن القول أن تأثير النحو العربي على أوروبا كان متعدد الجوانب، سواء على صعيد نقل المعرفة اللغوية، أو على مستوى تطوير علم اللغة والفلسفة. فقد ساهم هذا التأثير في تحفيز البحث العلمي والفكري في أوروبا ولعب دورًا مهمًا في عصر النهضة الأوروبية.

2.1.2. السياق الثقافي

أ. خصائص الثقافة العربية

لقد افترض محمد عابد الجابري في نقده للعقل العربي وجود عقل برهاني وعقل بياني وعقل عرفاني (الجابري، 2001). يعتبر أن العقل البرهاني يشكل عائقًا إبستمولوجيًا أمام تطوير العلم والفكر في العالم العربي للأسباب الآتية:

التركيز على البرهان: يرى محمد عابد الجابري أن العقل العربي يتميز بالتركيز الزائد على البرهان الرياضي والمنطقي، وهو ما يقتصر على تطبيقات نظرية بعيدة عن الحياة العملية والتجريبية. إن التركيز على البرهان يؤدي إلى تجاهل البعد التجريبي والتطبيقي للعلم، وبالتالي يحد من قدرة العلم العربي على التطور والابتكار.⁴

الفصل بين العلم والفلسفة: ينتقد الجابري الفصل الحاد بين العلم والفلسفة في الثقافة العربية، مما يقوض المنهج التكامل للبحث العلمي.⁵

التحليل النقدي: يفتقر العقل البرهاني، حسب الجابري، للتحليل النقدي والتفكير الاستقلالي، الذي يمكن أن يؤدي إلى التوصل لنتائج علمية جديدة ومبتكرة.

التقليد والتحفظ: يعتبر الجابري أن هذا النوع من العقل يفضل التقليد على الابتكار، ويتجنب المخاطرة الفكرية، مما يعرقل التطور العلمي والثقافي.

كما يعتبر الجابري ما سماه العقل البياني نظامًا فكريًا يتوسل إلى البلاغة والأساليب الأدبية كوسيلة للتفسير والإقناع. إذ يركز هنا على الإلمام بألوان اللغة وفنونها بدرجة قد تعيق النظر النقدي والتفكير العلمي. إنه يرى أن هذا النوع من العقل قد أثر بالسلب على التفكير العربي، حيث يُحجم عن المناقشات النقدية الجادة والتحليل العلمي للقضايا، مما يؤدي إلى تحجيم القدرة على التحليل النقدي والتفكير الرصين.

بشكل عام، يُمكن القول أن مشكلة العقل البياني تكمن في تحجيمه للأفكار وتقييدها بالأشكال اللغوية، بينما يغفل عن محتوى المعرفة وعمقها. هذا يضعف من قدرة الفكر العربي على التجدد والتطور، ويقال من مرونته في التعامل مع التحديات المعاصرة.⁶

يعتبر الجابري العقل العرفاني مُرتكزا على نوع من التصوف والغنوصية⁷ التي تُعيق النظرة النقدية والمنهجية في التفكير. يرى في هذا النوع من العقل تحولاً نحو الداخل، توجهاً نحو الذات بعيداً عن الواقع المادي والعلمي. إنه ينتقد هذا النوع من العقل لأنه

⁴ يمكن ملاحظة ذلك في الحياة اليومية، بارتكاز المعرفة على السماع والرواية وعلى نقاشات استدلالية قلما تستحضر البعد التجريبي.

⁵ يمكن اعتبار ذلك بديهياً مادام لفظ فلسفة في بعض اللهجات المحليّة أصبح يستخدم للدلالة على الخطاب غير المنتج.

⁶ قد لا ينكر أحد الأهمية التي تحتلها الخطابة في المجال الجغرافي العربي إلى درجة أنّها أحيانا تمثّل معيار التقييم الوحيد.

يقل من قيمة البحث العلمي والمنهجية العقلانية، ويُضعف من قدرة الفكر العربي على التعامل مع القضايا والتحديات بطريقة منهجية وموضوعية.

يُمكن القول إن مشكلة العقل العرفاني تكمن في تحجيمه للعقلانية وفي تركيزه على الجوانب الروحية والعقدية بما يُقلل من الأهمية التي يُعطى للبحث العلمي والتقدم المادي. يعتبر الجابري هذا النمط من العقل عائقاً يحول دون تطور الفكر العربي ويقيده بأساليب فكرية لا تُحقق التقدم في ميادين العلم والفلسفة.

في مقابل ذلك، يرى الجابري أنّ العقل الغربي يختلف عن العقل العربي في:

المنطلق المعرفي: باعتباره التفكير الغربي يتخذ من المعرفة والعقلانية منطلقاً، بدون الربط المباشر مع الأخلاق والقيم العقدية. الحرية الفكرية: يُظهر كيف يؤدي هذا المنطلق إلى مزيد من الحرية في البحث العلمي والتفكير النقدي، بدون التقيّد بالنصوص أو القيم الأخلاقية.

العلم والعقيدة: يشير إلى أن التفكير الغربي يفصل بين العلم والعقيدة، مما يسمح بالتقدم العلمي دون الاضطرار للتوفيق بينهما.

ب. تأثير الثقافة على اللغة

المفردات والمصطلحات: تتجلى الثقافة في اللغة من خلال المفردات والمصطلحات التي تعكس مفاهيم وقيم معينة داخل المجتمع. وهو ما يشكّل بنية أنطولوجية خاصّة وبالتالي دلالة تصوّرية مرتبطة بعالم ثقافي خاص.

الأمثال والاصطلاحات: تحمل الأمثال والاصطلاحات معاني ثقافية عميقة تعبر عن تجارب وقيم المجتمع.

اللغة كوسيلة للحفاظ على الهوية: اللغة تعكس وتحافظ على الثقافة والهوية، ولكن قد تواجه تحديات مثل التغير والتأثير الخارجي.

التعدد الثقافي واللغوي: تعزيز فهم التأثير المتبادل بين اللغة والثقافة يساهم في تعزيز التعددية الثقافية واللغوية.

3. اللسانيات المعاصرة

1.3. النظريات اللسانية

اهتمّت اللسانيات المعاصرة بثلاث إشكاليات، أولها تحديد طبيعة اللغة وثانيها وصف البنيات اللغوية وثالثها تفسير البنيات اللغوية. وذلك طبقاً لمقتضيات الدراسة العلمية بالمفهوم المعاصر. فالعلم بمفهومه المعاصر بعد تحديده لطبيعة الظاهرة الطبيعية موضوع الدراسة، يصفها بواسطة لغة واصفة ويفسّر سبب وجودها على تلك الحالة وليس على حالة أخرى.

في مجال الدراسات اللغوية، تظهر الحاجة الماسة إلى تطوير نظريات تتسم بتحقيق الكفاية الوصفية والتفسيرية معاً. من جهة، تعمل الكفاية الوصفية على تحليل وتوثيق مظاهر اللغة وتقويمها بشكل دقيق، من خلال دراسة الظواهر اللغوية كما تظهر في الاستخدام الفعلي. ولكن، يجدر بنا أن ننظر أبعد من هذا، حيث تأتي الكفاية التفسيرية لتمنحنا الفرصة لاستكشاف القوانين والمبادئ التي تقف وراء هذه الظواهر، فتسمح بتوضيح الأنظمة الكامنة التي تحكم تكوين وتشكيل اللغة، وبالتالي تسهيل فهم أعمق للمكونات اللغوية وآليات عملها (Chomsky, 2017).

⁷ الغنوصية، مصطلح يُنسب للكلمة اليونانية "غنوسيس" التي تعني "المعرفة"، تشير إلى مجموعة من الأفكار والنظريات الدينية والفلسفية التي كانت شائعة خاصة في القرون الأولى للميلاد. هذه النظريات كانت متميزة بتأكيداتها على الفرق بين العالم المادي، الذي يعتبرونه عالماً ساقطاً وفاسداً، والعالم الروحي الأصيل.

ولقد اختلفت النظريات اللسانية في شأن تحديد طبيعة اللغة باعتبارها بيولوجية أو عقلية أو اجتماعية تواصلية أو رياضية أو سلوكية أو مادية وفق ما تقدمه كالاتي:

تقوم النظرية البيولوجية اللسانية على افتراض مفاده أن القدرة اللغوية مُدمجة في الدماغ البشري كجزء من التطور البيولوجي للإنسان. هذا يُظهره البحث في النيورولسانيات وعلم الجينوم البشري، الذي يربط بين قدرات اللغة ومراكز معينة في الدماغ أو تشكلات جينية خاصة (Chomsky, 2016).

بينما تعتبر النظريات اللسانية العقلية اللغة ذات تمثّل عقلي مركزة على مجموعة من الافتراضات. من أبرز هذه الافتراضات هو القول بأن اللغة ليست مجرد أداة للتواصل، ولكنها أيضًا تُمثّل جزءاً من البنية العقلية للإنسان. هذا يعني أن القدرة على استخدام اللغة وفهمها تتأصل في مكونات عقلية معينة، وأن هناك أنماط ذهنية تُمكن الإنسان من فهم وتوليد الكلمات والجمل (Pinker, 1994).

النظرية اللسانية التي تعتبر أنّ جوهر اللغة هو التّواصل تقوم على افتراض أنّ اللغة أداة للتفاعل الاجتماعي والتبادل الثقافي، وهي تُعبّر عن هويات الأفراد والمجموعات، وتحمل في طياتها العادات والقيم والمعتقدات (Hymes, 1974).

النظرية التي تعتبر اللغة ذات طبيعة رياضية تركز على استخدام المنهج الرياضي لتحليل اللغة، وبالأخص في مجالات هندسة النحو الذهني والعمليات التحويلية المصاحبة. هذا المنظور يُعزز من استخدام المنطق الرياضي، بما في ذلك النظريات الجبرية والنظرية المجموعاتيّة، لدراسة البنى والوظائف اللغوية. أحد الأمثلة على هذا هو النحو النوعي (Generative Grammar) الذي طُوّر بواسطة نعوم تشومسكي، حيث يتم تطبيق مفاهيم رياضية مثل الخوارزميات والأشكال البنائية لتحليل وتوليد الجمل اللغوية. في هذا السياق، يُصبح من الممكن تطبيق الرياضيات لوصف القواعد التي تحكم تكوين الجمل والعبارات في لغة معينة (Chomsky, N. 2015).

النظرية الرياضية للغة تُظهر كيف يمكن لنظام من القواعد البسيطة أن يولّد مجموعة لا نهائية من الجمل الصحيحة، مما يُسهّم في فهم طبيعة اللغة كنظام بنوي مُعقد يُمكن تمثيله وتحليله رياضياً.

في النظريات التي تعتبر اللغة سلوكاً، يتم الإشارة عادة إلى أفكار النظرية السلوكية التي طُوّرت في النصف الأول من القرن العشرين بقيادة علماء نفس مثل جون ب. واتسون وب. إف. سكينر⁸. وفقاً لهذا المنظور، يعتبر اللغويون السلوكيون اللغة كسلسلة من الردود السلوكية التي يمكن تعلمها وتعزيزها من خلال مكافآت وعقوبات في البيئة المحيطة (Skinner, 2014).

وفي هذا السياق، يتم تنظيم اللغة كمجموعة من الأنماط السلوكية التي تُكتسب عبر التدريب والتعلم، بدلاً من النظر إليها كنظام مُعقد يتضمن قواعد وأشكالاً ذهنية. وهكذا، يتم النظر إلى اللغة على أنها نتيجة للتفاعلات الاجتماعية والبيئية، وليس كمنتج لقدرات ذهنية معينة.

⁸ عند النظر إلى أعمال واتسون وسكينر، نجد أن هناك تشابهاً كبيراً بينهما في التركيز على السلوك كمجال رئيسي للدراسة في علم النفس. كلاهما كان يعتقد أن السلوك البشري يمكن أن يدرس ويُحلل من منظور علمي، مع التركيز على الدور الهام الذي تلعبه البيئة في تشكيل وتوجيه السلوك البشري. هذا الاتجاه في علم النفس امتد ليشكل أساساً للأبحاث والتطبيقات النفسية العصرية، مع تأكيد كبير على الدور الذي يمكن أن تلعبه البيئة في تشكيل وتحديد السلوك البشري.

النظرية اللسانية القائمة على المتون اللغوية أو ما يسمّى كذلك باللسانيات النصّية تعتبر اللغة تجسيدا مادّيًا في شكل مجموعات كبيرة ومُنظمة من البيانات اللغوية، المعروفة باسم "المتون"، تمكّن من دراسة اللغة بطريقة تحليلية وإحصائية. يبني هذا التوجّه على التحليل النوعي والكمي للبيانات اللغوية المُجمعة بطريقة طبيعية، بدلاً من الاعتماد على الحُكم النظري أو التحليل النظري الذي يُقدمه الخبراء (Halliday & Matthiessen, 2014). تعطي هذه النظرية أولوية للدور الذي تلعبه السياقات الفعلية في فهم الوظائف والأشكال اللغوية. وبالتالي، يُمكن لللسانيات المعتمدة على المتون الضخمة أن تُقدم رؤى دقيقة حول كيفية استخدام اللغة في سياقات مُحددة، مما يمكّن من فهم الظواهر اللغوية التي قد لا يُمكن فحصها بفعالية عبر المناهج التحليلية التقليدية.

2.3. عوائق استيعاب النظرية اللسانية

سينبني تحليلنا بالتوقّف على ثلاثة أبعاد مجتمعة. وذلك بالبحث عن تحقّق أو عدم تحقّق بُعد العوائق الإبيستولوجية التي طرحها الباحث الجابري في عدم استيعاب بُعد مبادئ النظريات اللسانية في ضوء بُعد تجربتنا كمدرس لسانيات في جامعة القاضي عياض المغربية وهو ما يجسّد البعد التجريبي للعمل المقدم.

من جهة أولى إنّ إشكالية تحديد طبيعة اللغة لا يتمّ تناولها أكاديمياً بالمدى الجغرافي العربي. وذلك لأنّ الدراسات اللغوية تعتبر دراسات لصيقة بالدراسات الأدبية وبالتالي الطالب أو الباحث يكون غير مؤهل لممارسة دراسات بيولوجية أو رياضية أو سلوكية أو إحصائية. وذلك مرده انعدام وجود جسور بين مجالات معرفية مختلفة في المحيط الجامعي. وحتىّ لما يتمّ تناول دراسة اللغة في بعديها العقلي أو التواصل، فمن النادر أن يتحقّق ذلك في استحضار للبعد التجريبي. ناهيك عن أنّ الولوج نحو التخصصات الأدبية وبالخصوص باللغة العربية يكون عموماً دون انتقاء مؤسساتي مسبق.

من جهة ثانية، يتمّ تناول الدرس اللغوي في المجال الجغرافي العربي مؤطراً بإشكالياتي الوصف والتفسير كما يمكن تبيّنه من خلال المقررات الجامعية وسنعرض الصعوبات التي اعترضتنا في ذلك خلال أدائنا لمهمتنا على أرض الواقع بدءاً بما اعتبرناه صعوبات تهّم النسق اللساني ثمّ بتناول كلّ مستوى تحليل لساني على حدة بما يرتبط به من معيقات متعلّقة به.

1.2.3. على المستوى النسقي

أ. في التمييز بين الافتراضات والمسلمات

لنتناول مثلاً في سياق اللسانيات التوليدية، حيث يمكن القول إنّ المصطلحين "مسلمة" و"افتراض" يحملان معانٍ متفاوتة ويُستخدمان لأغراض مختلفة. المسلمات في هذا الإطار تُعتبر مبادئ أو قواعد جامعة مُدمجة في عقل الإنسان، وتشكل الأساس النظري للنظام اللغوي. إنها تُعتبر حقائق مُفترضة يتمّ بناء النظرية عليها، ولا تخضع عادة للتحقق التجريبي.

من ناحية أخرى، الافتراضات في اللسانيات التوليدية هي اقتراحات تُدرس وتُختبر من خلال البحث العلمي. تُركز الافتراضات على مظاهر محددة من اللغة وتقدم تفسيرات مُمكنة لها. على سبيل المثال، افتراض حول كيفية تكوين الجمل في لغة معينة ستخضع للتحليل والفحص النقدي.

بالمجمل، المسلمات تُشكل الأساس النظري الثابت الذي تُبنى عليه النظرية، بينما الافتراضات تُعتبر وسيلة لاستكشاف وفحص هذه النظرية. المسلمات لا تحتاج إلى توثيق، بينما الافتراضات تحتاج إلى التحقق العلمي لتُصبح جزءاً مقبولاً من النظرية. يعود عدم التمييز بين المصطلحين "مسلمة" و"افتراض" إلى عدة عوامل:

التداخل المفهومي: تُستخدم كلمة "افتراض" في سياقات عديدة بما في ذلك الحياة اليومية، حيث يُمكن أن تُعتبر مجرد توقع، بينما تُستخدم كلمة "مسلمة" في سياقات أكثر تخصصية.

الغموض اللغوي: قد تُضاف إلى الإشكالية صعوبة الترجمة أو الاستخدام غير الدقيق للمصطلحات في النصوص العربية، مما يُضيف طبقة أخرى من الغموض.

نقص في التفكير التحليلي: قد يعاني الطلاب من نقص في التفكير التحليلي الذي يُمكنهم من فهم التفاوتات بين المصطلحات ودورها في بناء النظريات.

الخلفية الثقافية والفلسفية: في الثقافات المحلية عموماً، يتم تناول مصطلح افتراض بينما لا يتم تناول مصطلح مسلمة إلا نادراً. ب. في التمييز بين العلم والمعرفة

يعزى عدم التمييز بين مصطلحي "العلم" و"المعرفة" لدى الطلبة لعدة عوامل، بما في ذلك العوامل الأوتولوجية والبيداغوجية. من ناحية، تُعد اللسانيات نفسها تخصصاً يغطي نطاقاً واسعاً، يتضمن مجموعة من المقاربات التي تتداول الصوتيات، والتركييب، والدلالة، واللسانيات الاجتماعية. ذلك يُنتج غموضاً في تصور المعرفة التخصصية، التي قد تُعتبر إما "معرفة" شاملة تجمع بين الظواهر اللغوية، أو "علمًا" يُتسم بالدقة المنهجية والأطر النظرية المحددة.

من ناحية أخرى، يتعين التأكيد على الأثر الذي تلعبه العوامل الثقافية والتعليمية في تشكيل التصورات السابقة لدى الطلبة. في النظام التعليمي، قد يكون التركيز موجهاً إما نحو الاكتساب المعرفي ("المعرفة")، أو نحو الاكتساب المنهجي ("العلم"). إضافةً إلى ذلك، في بعض الثقافات، كما هو الحال غالباً في الثقافات العربية، إنّ الحدود بين المعرفة العقدية والمعرفة العملية والمعرفة الأكاديمية قد يكون أكثر ضبابية، مما يُمكن أن يُسهم أيضاً في هذا الالتباس. وذلك، مردّه عوامل تاريخية وثقافية معقدة. في العادة، يُعتبر العلم في الفكر العربي إطاراً شاملاً للمعرفة، وهو ما يرتبط بالشرع والفقه والتاريخ واللغة. بينما يتميز العلم بالمفهوم المعاصر بتوجهه نحو البحث العلمي والمنهجية الدقيقة. هذا الفارق المنهجي غالباً ما يكون غير واضح خصوصاً في غياب تكوين في فلسفة العلم أو في نقد العلوم في سياقات تعليمية موسعة.

ج. في الاعتقاد بوجود حقيقة مطلقة

إن الفكرة التي تعتبر العلم طريقة لوصف "الحقيقة المطلقة" شائعة لدى الطلبة بسبب تداخل مُعد لإطارات معرفية ثقافية وتصورات شعبية للعلم. في التقاليد العربية، يحظى مصطلح "علم" بقيمة عالية، ويُعتبر وسيلة للاقترب من الحقيقة. أحياناً يؤدي ذلك إلى ارتباك بين النموذج العقدي للمعرفة النهائية ودور العلم التجريبي، الذي يعمل ضمن إطارات مُعينة من الناحية المنهجية وبأهداف محددة من حيث القابلية للتحقق والتقيد.

بالإضافة إلى ذلك، تتميز الثقافة العربية بتاريخ غني في الفلسفة والعلوم الطبيعية كما هو ظاهر في أعمال العلماء العرب في العصور الوسطى وهو ما يسهم في رؤية مثالية للعلم كوسيلة للكشف عن حقائق مطلقة.

د. عن البعد اللساني التطوّري

الاعتراض على اللسانيات التعاقبية للغة العربية من قبل الطلبة يعزى إلى مجموعة من العوامل المترابطة، والتي تتجاوز البعد اللغوي لتشمل البعد الثقافي. في هذا السياق، تعتبر اللغة العربية ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل تعتبر جزءاً محورياً من الهوية الثقافية العربية، بوصفها لغة القرآن الكريم، ينظر إليها أحياناً كلغة "مقدسة" لا تتغير مع مرور الوقت. هذا الإطار الفكري يجعل من الصعب قبول فكرة التطور اللغوي،

وبالتالي يصبح من الصعب الاعتراف بالأبحاث التي تركز على اللسانيات التعااقبية (Diachronic). وعليه، أحيانا يُنظر إلى الدراسات التي تستخدم مقارنة تطورية كمحاولة للتشكيك ليس فقط في طبيعة اللغة نفسها ولكن أيضا في الأسس الثقافية التي يبني عليها هؤلاء الطلاب فهمهم للعالم.

ه. في تناول الوصف مقارنة بتناول التفسير

إن الصعوبات المواجهة في تدريس إشكالات التفسير اللساني بالمقارنة مع إشكالات الوصف يمكن أن تُفهم في إطار عدة متغيرات مترابطة:

الطبيعة الإيديولوجية للموضوع: إشكالات التفسير تميل لأن تتعامل مع العلاقة بين اللغة والفكر والثقافة والهوية، وهي مواضيع تحتمل الكثير من الحساسية الثقافية. فعلى سبيل المثال، بعدما يُقال للطالب بأنه نقول نَلْعَبُ وَيَلْعَبُونَ ولماذا لا نقول نَلْعَبُونَ؟ غالبا ما يُفصح بأن الصيغة لم تُخلَق. ليصبح السؤال المطروح في غير محلّه في اعتقاده.

التعقيد النظري: التفسير يتطلب عادة استعراضاً لنظريات مُعقدة قد تكون غير مألوفة للطلبة، مما يستدعي مستوى أعلى من الاستعداد الفكري والتحليلي.

الأطر المرجعية: في بعض الحالات، قد يكون لدى الطلبة إطارات مرجعية ثقافية تجعلهم يقتصرن على النظر في الظواهر اللغوية من خلال عدسات محددة، مما يقيد النقاش والتفسير.

الخلفية التعليمية: قد تكون الأنظمة التعليمية التي تعرض لها الطلبة قد ركزت بشكل أكبر على الحفظ والتكرار على حساب التفكير التحليلي والنقدي.

2.2.3. على المستوى الصوتي

أ. في اعتبار اللغة المكتوبة تجسيدا للواقع اللغوي

إنّ نظم تعليم اللغة تنبني على تعليم اللغة المكتوبة، مما يعرّض اللغة المنطوقة للإغفال أو التقليل من شأنها. في الواقع، يؤدي ذلك إلى سوء فهم مفهوم الفونيم خصوصا أنّ الخطّ العربي يتضمّن رسم الألف الذي لا يقابله أي فونيم على المستوى الصوتي بحيث أنّ الصّوت يتضمّن فونيم الهمزة وفونيم المدّ أو الحركة الطويلة، ناهيك على أنّ الياء والواو الخطيين تارة يمثّلان حركات طويلة وتارة أخرى يمثّلان صوامتا. وهو ما يمثّل عائقا في متابعة الدرس الصوتي. وبشكل عام، يتمّ الاعتراض بمجرد سماع أنّ اللسانيات تعتبر اللغة المكتوبة مظهرا مشوّها للغة.

ب. في مسابرة الدرس الفيزيائي للصوت

أولا، يميل الطلاب غالبا إلى التركيز على التحليل النصي والتفسير الأدبي، ما يجعل الانتقال إلى دراسة أكثر علمية للغة تحديا كبيرا لهم.

ثانياً، الفيزياء الصوتية تتطلب معرفة بمبادئ بسيطة للفيزياء والرياضيات، مثل مفاهيم الطول الموجي والتردد والطيف الصوتي. وهو ما يستعصي استيعابه بالنسبة لطلبة الدراسات الأدبية.

ثالثاً، الأدوات التعليمية التقليدية التي اعتاد عليها الطلبة في الدراسات الأدبية، مثل القراءة النقدية للنصوص، غير مناسبة لمادة علمية وتجريبية مثل الفيزياء الصوتية. لأنّ ذلك يستلزم التعامل مع برمجيات تسجيل الصوت ومعالجته بواسطة الحاسوب.

وهو ما يجعل الدرس الصوتي منحصرا في الصوتيات النطقية المهتمّة تحديدا بمخارج وصفات الفونيمات التي غالبا ما يُفضّل نعتها بالحروف انسجاما مع المصطلح التراثي. وفي هذا السياق يُظهر بعض الطلبة المهتمين بتجويد القراءات القرآنية،

مجموعة من الصعوبات الناتجة عن تفاعل بين المعرفة العقديّة والعلمية في الدرس الصوتي. أولاً، يتجلى التحدي في الإطار المعرفي الذي يعتمد عليه الطلاب، حيث يميلون إلى تقييم المعلومات الصوتية بناءً على معايير تقليدية، مما يقيد التفكير النقدي والتحليل العلمي. ثانياً، تظهر لديهم صعوبات في استيعاب مفاهيم مثل الظواهر الفونيمية أو الألوфонية، بسبب الاعتقاد السائد عند هؤلاء الطلاب بأن مخارج الحروف كما هي مُحددة في قواعد التجويد هي الأصل ولا يُمكن تغييرها أو تفسيرها بطرق أخرى. ثالثاً، قد يعتبر الطلاب الدراسة العلمية الصوتية كمجال "ثانوي" بالمقارنة مع الأهمية العقديّة لمعرفة مخارج الحروف في تجويد القرآن الكريم.

3.2.3. على المستوى الصرفي

أ. في تمثّل محدوديّة عدد الألفاظ

نقف هنا على أنّ الطلاب يعتقدون على نطاق واسع بلا محدوديّة عدد ألفاظ اللغة. ولما يطالب منهم تعليل ذلك، يدلي بعضهم بسند من القرآن الكريم مؤسس على قوله الله تعالى في سورة الكهف "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا". ومن المعلوم أنّ هاته الجملة تتميز من الناحية اللغوية، بتركيبها البلاغي باستخدامها مفهوم "البحر" كتشبيه للحبر، و"كلمات ربي" كتشبيه للمعرفة والحكمة الإلهية، لتوضيح عظمة وغازرة هذه المعرفة والحكمة للتأكيد على عظمة الله وصفاته اللامتناهية.

في مجال الرياضيات وتحديدًا في نظرية المجموعات والمتواليات، يمكن القول بأن عدد المتواليات التي يمكن تكوينها من ألقباء محدود (finite alphabet) يعتمد على عدد الرموز في هذا الألقباء وعلى القواعد التي تحكم تكوين المتواليات. فإذا كان لدينا ألقباء يتألف من n رمز ونرغب في تكوين متواليات طولها k فإن عدد المتواليات الممكنة يكون n^k . في السياق اللغوي، الألقباء يمثل مجموعة الفونيمات، وبما أنّ هذه المجموعة محدودة في جميع اللغات، فإن القواعد الصوتية والصواتية والصرفية تمثّل قيوداً على عدد التآليفات الممكنة مما يجعلها حتماً أقلّ من n^k وبالتالي فهي محدودة. وعموماً هذا الخطاب يتمّ رفضه وأحياناً الاحتجاج عليه بدعوى أنّه انحراف عن الدرس اللغوي.

ب. في تمثّل الصّرف الاشتقاقي بوصفه نظاماً يهّم الأسماء والأفعال معاً

من المعلوم أنّ الصّرف بالمفهوم اللساني يُعنى بصور الألفاظ بتحليلها إلى مكوناتها الأصغر أو بتأليفها من مكوناتها الأصغر. يُعتبر المفهوم التصريفي (Inflectional) والمفهوم الاشتقاقي (Derivational) من المفاهيم الرئيسية في هذا المجال. الصّرف التصريفي: يُعنى بالتغييرات التي تطرأ على الكلمات لتحديد وظائفها النحوية أو الصرفية داخل الجملة. في العربية، مثلاً، يُمكن أن يتغير شكل الفعل بناءً على الزمن والجنس والعدد. إلى جانب ذلك، يُمكن أن تُضاف بعض اللواحق للأسماء لتحديد حالتها الإعرابية.

الصّرف الاشتقاقي: يُعنى بكيفية استحداث ألفاظ جديدة من خلال إضافة صور مُشتقة من الجذور.

عموماً نتائج التقييم في هاته النقطة تفيد بأنّ الطلبة يعتبرون موضوع الصّرف هو الأفعال دون الأسماء. كما أنّ هناك صعوبة في اعتبار الجذر مادّة مجردة يشتقّ منها الأفعال والأسماء على حدّ سواء. وذلك يرجع في تقديرنا إلى المنهاج التعليمي التقليدي الذي يعتبر في مراحل الأولى الصّرف مسألة تخصّ بالأساس الأفعال.

4.2.3. على المستوى التركيبي

أ. في تمثّل ظاهرة التكرارية

إحدى الخصائص الأساسية التي تُظهر تعقيد اللغة الطبيعية البشرية هي قدرتها على التوليد اللانهائي للجمل والتراكيب اللغوية. هذا الجانب يُعزى بشكل كبير إلى مفهوم التكرارية أو "الاستدارة" (Recursivity) في علم اللسانيات. الاستدارة تُمكننا من توليد جمل جديدة باستخدام عدد محدود من القواعد النحوية والعناصر اللغوية. ببساطة، يُمكننا دمج العبارات والجمل بطرق متعددة لتكوين جمل جديدة، وكل جملة جديدة يُمكن أن تكون أساساً لإنشاء جملة أخرى جديدة. على سبيل المثال، نأخذ الجملة البسيطة "الرجل يقرأ الكتاب". يُمكننا إدراج جملة ضمنية لتوسيعها، مثل "الرجل الذي يُحب الفلسفة يقرأ الكتاب". وهكذا يُمكننا استمرار هذا التوسيع بلا نهاية عبر استخدام الاستدارة. يُمكن تطبيق هذا الأسلوب على جميع مستويات التراكيب اللغوية، من العبارات الصغيرة إلى الجمل المُعقدة. بالتالي، يُمكن للنحو المُستدار أن يُولد تنوعاً لا حصر له، مما يُثبت أن القدرة على تكوين الجمل في اللغة ليست محدودة، وبالتالي، يُمكن اعتبارها لا نهائية.

في تقديرنا إنّ عدم فهم الطلاب لمفهوم التكرارية أو "الاستدارة" في الدرس التركيبي ينجم عن عدة عوامل. أولاً، يُعدّ المفهوم مُعقداً ويتطلب نوعاً من التفكير الاستقرائي والتحليلي الذي قد لا يكون مُستقراً بالكامل لدى جميع الطلاب. ثانياً، إنّ التعليم التقليدي للغة مرتبط بشكل أكبر بتطبيقات لا تتطلب نمذجة صورية.

ثالثاً، إنّ طرق التعليم في مجال اللغة تركز عموماً على الحفظ والتكرار بدلاً من التفكير التحليلي، ولذلك يصعب على الطلاب استيعاب مفاهيم تحتاج إلى نوع من التفكير النقدي والتحليلي.

رابعاً، قد يعوز الطلاب المهارات اللازمة لربط هذا المفهوم بتطبيقاته العملية في اللغة، مما يجعله يظل مجرد مفهوم نظري بالنسبة لهم. وبما أنّ التطبيقات تستلزم توظيف برمجيات تحاكي النحو، فالطالب لا يتعامل معها لأنه عموماً غير معتاد على التّجريب.

ب. في التمييز بين الأولي والمشتقّ

في النظريات اللسانية المختلفة، تعتبر العناصر الأساسية أوّليات (Primitive) وهي وحدات أساسية تُستخدم كنقطة انطلاق لبناء بنى لغوية أكثر تعقيداً. في سياق النظرية التوليدية التي طورها نعوم تشومسكي على سبيل المثال، يُمكن اعتبار أوّليات النحو الشجرة التركيبية "سين خط" أو عناصر مثل المورفيمات أو السمات النحوية التي تُشكل الأساس للبنية النحوية للجملة في حين أن الوظائف النحوية مشتقة منها.

في المقابل، تعتبر النظرية الوظيفية الأوّليات ووظائف نحوية مثل الفاعل، والفعل، والمفعول به، التي تعدّ نقطة الانطلاق لفهم كيفية تشكيل الرسائل داخل اللغة. تُدمج هذه الأوّليات الوظيفية ضمن بنى أكبر، مُشكلةً بذلك الجمل والعبارات النحوية. ليصبح بذلك التركيب مشتقّ من الوظائف.

من الضروري فهم أن هذه الأوّليات ليست مطلقة وتعتمد بشدة على الافتراضات والأهداف الخاصة بكلّ نظرية على حدة. يُمثل مفهوم الأوّليات عنصراً أساسياً يتيح للسانيين تفكيك التعقيد المُتأصل في اللغة إلى وحدات قابلة للتحليل والفهم. وفي هذا السياق، يُمكن القول بأن الأوّليات تُشكل الأساس الذي يُمكن منه البناء والتحليل، وبالتالي، فهي تُشكل جزءاً لا يتجزأ من أي نظرية لسانية تُركز على فهم اللغة بوصفها نظاماً.

الصعوبات التي يواجهها الطلاب في التمييز بين العناصر الأولية والعناصر المشتقة داخل نظرية لسانية معينة يمكن أن تعزى إلى عدة عوامل:

أولاً، يمكن أن يكون مستوى التعقيد والدقة الفنية للنظرية اللسانية عائقاً بحد ذاته. النظريات اللسانية، غالباً ما تتضمن مصطلحات تقنية وتصورات رياضية قد تجعل الوصول إلى الفهم الحقيقي لمفاهيم مثل "الأولي" و"المشتق" صعباً. ثانياً، قد يفتقر الطلاب إلى فهم عميق للمبادئ التوجيهية أو الافتراضات الأساسية التي تقوم عليها نظرية معينة. هذا يمكن أن يسبب الكثير من الإرباك عند محاولة تصنيف العناصر كأولية أو مشتقة، لأن هذه التصنيفات غالباً ما تعتمد على البناء العام للنظرية نفسها.

أخيراً، يجب أن نأخذ في الاعتبار التوجهات التعليمية والخلفية التربوية السابقة للطلاب. أي التدريب في الدرس اللغوي، التي يركز على القضايا الوصفية بدلاً من النظرية، قد لا يكون أعد الطلاب بشكل كاف لمواجهة مسائل مفهومية تحتاج إلى تصور دقيق.

بمجرد الأمور، القدرة على التمييز بين العناصر الأولية والمشتقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفهم عميق ودقيق للنظرية اللسانية ككل، وهي مهارة تتطور عادة بمرور الوقت من خلال الانغماس في دراسات متقدمة في اللسانيات. للتغلب على هذه الصعوبات، يمكن الاعتماد على المنهج التعليمي المتعدد الجوانب، الذي يجمع بين الشرح النظري، والأمثلة التجريبية.

5.2.3. على المستوى الدلالي

أ. في التمييز بين الدلالة والمعنى

تعود صعوبة تمييز الطلاب الدلالة عن المعنى إلى عدة عوامل متداخلة. من الناحية النظرية، يُعتبر مفهوم الدلالة، قسماً متخصصاً من علم اللغة يهتم بدراسة المعنى داخل النظام اللغوي نفسه. يركز هذا الفرع على كيفية تكوين الدلالات والعلاقات بينها في إطار نظامي ومنهجي.

بينما يُعتبر المعنى مفهوماً أوسع يشمل ليس فقط الدلالة اللغوية ولكن أيضاً السياق الثقافي، الاجتماعي، وحتى النفسي الذي يُمكن أن يؤثر على تفسير الكلمات والعبارات. إن السياق يمكن أن يُعني أو يُعقد المعنى بشكل يُفوق ما يُمكن للدلالة الوصول إليه. إن الخلفية الثقافية هي مردّ هذه الصعوبة. ففي الثقافات لا يتمّ تصور معنى خارج اللغة.

ب. في التمييز بين الدلالة المعجمية والدلالة التصورية

الصعوبة التي يواجهها الطلبة في التمييز بين الدلالة التصورية والدلالة المعجمية تعود لعدة أسباب متعددة ومتشابكة. أولاً، يمكن أن يلعب الطابع المعقد لكل من الدالتين التصورية والمعجمية دوراً محورياً في هذه الإشكالية. الدلالة التصورية تناقش الأساسيات والمفاهيم الكونية التي تحكم فهمنا للعالم، وبالتالي تعتبر بعيدة نسبياً عن التطبيقات اللغوية اليومية وقد تظهر كأنها أكثر تجريداً. بينما الدلالة المعجمية تتعامل مع معاني الكلمات والعبارات في سياقات محددة، مما يجعلها أكثر قرباً من التجربة اللغوية.

ثانياً، قد يكون هناك تداخل بين المجالين يزيد من الإرباك بوجود ألفاظ مثل "الحب" أو "العدالة" التي يمكن أن تدرس من منظورين: التصوري والمعجمي، مما يثير تساؤلات حول كيفية تقسيم الدراسة بينهما.

ثالثاً، يمكن للطبيعة المتعددة الأبعاد للسانيات أن تضيف نوعية أخرى من الصعوبة. تتطلب اللغويات بشكل عام من الطلاب الانتقال بين مستويات مختلفة من التحليل، مما يجعل من الصعب رسم الحدود بين مجالات فرعية مختلفة.

4. نتائج

تجدر الإشارة إلى وجود تداخل بين معيقات ثقافية وأخرى تعليمية يصعب التمييز بينهما. علماً أنّ المحيط الأكاديمي العربي يتميز بتناوله الدراسة اللسانية موازاة مع تناوله دراسة التراث العربي النحوي بالجامعات، دون التسطير بوضوح على أنّ النحو العربي مؤسس على إشكالية فريدة غايتها تحديد العلامات الإعرابية للألفاظ في سياقاتها التواصلية المحددة معناها ومبناها. علماً أنّ ذلك يتمّ دون استحضار المرجعيات الفلسفية التي كانت من وراء وجود مدرستي الكوفة والبصرة بما يكفي. في حين أنّ اللسانيات مؤسّسة على إشكاليات أخرى سبق تفصيلها. غير أنّ الدراستين تتمّ بواسطة نفس الألفاظ التي تحيل على مفاهيم مختلفة في المجالين المذكورين. وهو ما يشكّل في حدّ ذاته عائقاً بيداغوجياً وبالتالي عائقاً تعليمياً يوهّم الطلبة بوجود ترابطات بين التراث النحوي العربي واللسانيات. ويتفاقم المشكل المذكور بوجود العديد من الندوات والمؤتمرات التي تبحث عن تجليات اللسانيات المعاصرة في التراث النحوي العربي.

إنّ الثقافة اللغوية العربية -كأيّ ثقافة أخرى- تؤثر على نظم التعليم ووسائل التواصل داخل المجتمع، مما قد يؤدي أحياناً إلى بعض المغالطات في التعليم والتواصل. ويتجلى ذلك بشكل واضح بدليل وجود ما يسمّى بلسانيات عربية في غياب فيزياء عربية أو رياضيات عربية.

تعتبر الثقافة اللغوية العربية مكوناً جوهرياً في هوية مجتمعاتها وهو ما يعتبر إيجابياً، ولها تأثير مباشر على مختلف جوانب الحياة. في هذا الإطار، تظهر بعض المعوقات التي يمكن أن تؤثر على الممارسة العلمية وبالتالي على الدراسات اللغوية المعاصرة. وقد تؤدي طبيعة الربط الوثيق بين اللغة العربية والمعتقدات إلى بعض التحديات في ميدان البحث اللغوي والعلمي. ولذلك، قد تحد القيود الثقافية من حرية البحث والتفكير النقدي في المجالات التي حققت فيها الحضارة العربية تراكمات معرفية مهمة وعلى رأسها الدرس اللغوي، مما قد يقيد الدرس اللساني المعاصر. وهو ما يشكّل موقفاً طبيعياً في ظلّ حاجة للتوازن بين الحفاظ على التراث اللغوي والثقافي وبين التطور العلمي والتكنولوجي.

للإجابة عن الإشكالية المطروحة، يجدر بنا أن نأخذ في الاعتبار عدة عوامل معقدة تتراوح ما بين الخلفية الثقافية ونوعية التعليم الذي تلقاه الطلبة. العقل البرهاني، وهو يتعامل مع البراهين والأدلة المنطقية، مفيد عند دراسة النظريات اللسانية التي تعتمد على البيانات الإحصائية أو الأدلة البنوية شريطة استحضار البعد التجريبي. بينما العقل البياني، الذي ينبنى على الخطابة وجمالية اللغة فيشكل عموماً عائقاً في تقييم الأستاذ للطلبة وكذلك في تقييم الطلبة للأستاذ. أما العقل العرفاني، الذي يسعى للوصول إلى حقائق عن طريق الإدراك أو الوحي، فقد يتنافى مع بعض الأفكار اللسانية المؤسّسة على الافتراض.

لذا، يمكن القول إن هذه الأنماط المعرفية قد تكون عائقاً في بعض الحالات، لكنها في الوقت نفسه قد تكون مفيدة إذا تم استخدامها بطريقة تكملية وبناءة. الأهم هو كيفية التعامل مع هذه العوائق في إطار تعليمي يهدف إلى توسيع الفهم والاستيعاب.

5. توصية

من الطبيعي أن تكون هناك تباينات بين العلم بالمفهوم الحديث المبني على الافتراض والثقافة المبنية على الاعتقاد، غير أنّه يمكن التخطيط لبناء بيئة يتواجد فيها العلم إلى جانب الثقافة في تحالف وتجانس، من خلال التأكيد على تفاعلات:

أولاً، يمكننا تحليل الدور الذي تلعبه الثقافة في توجيه الأسئلة الأخلاقية. هنا، تأتي الثقافة كمحدد رئيسي للقيم والمعايير التي تُحدد كيفية تقييمنا للأبحاث والاكتشافات العلمية. وبالتالي، يمكن للثقافة أن تعمل كوسيط للحوار بين العلم والمجتمع، مما يساهم في تحقيق التوازن بين التقدم العلمي والمعتقدات والقيم الثقافية المستقرة في المجتمع.

ثانيًا، يظهر العلم كوسيلة قوية لتقديم الإجابات التفسيرية والحلول للتحديات التي نواجهها. من خلال إيجاد تحاليل عميقة ومدروسة، يمكن للعلم أن يسهم في توسيع نطاق فهمنا وإثراء المعرفة بشكل عام. التوجه المقترح هنا يشدد على أهمية تقبل التعددية والتنوع، حيث يُشجع على تبني نظرة متعددة الجوانب تسعى لتحقيق التكامل بين مجالات متعددة من الفكر والبحث. هذا يعني تبني موقف تعاوني يتيح فرصًا للتفاعلات المثمرة والحوارات البناءة. في النهاية، يمكن أن يتجلى الحل في التوجه نحو تعزيز التعاون بين مجتمع الباحثين العلميين والمجتمع الثقافي الأوسع. من خلال الجمع بين الجهود والموارد من كلا الطرفين، يمكن تحقيق نوع من التناغم الذي يؤدي إلى تحقيق التنمية المستدامة لمجتمع أكثر تنوعًا وتقبلاً للتنوع والاختلافات.

6. المراجع:

1.6. المراجع باللغة العربية:

- الأشموني، م. (2004). النحو العربي: دراسة تاريخية نقدية. القاهرة: دار الفكر العربي.
الجابري، م. ع. (2001). "تكوين العقل العربي". بيروت: دار الطليعة.
السيد، م. (2006). "الأندلس وأثرها في الحضارة الأوروبية". الرياض: دار العلم للملايين.
السيرافي، س. (2008). النحو العربي والتفكير الفلسفي. الرياض: دار العلم للملايين.
مكي، م. (2002). "التأثير العربي على الثقافة الأوروبية". بيروت: دار النفائس.

2.6. المراجع باللغة الإنجليزية:

- Chomsky, N. (2015). *The Minimalist Program*. The MIT Press.
Chomsky, N. (2016). *What Kind of Creatures Are We?*. Columbia University Press.
Chomsky, N. (2017). *Why Only Us: Language and Evolution*. MIT Press.
Halliday, M. A. K., & Matthiessen, C. M. I. M. (2014). *An Introduction to Functional Grammar*. Routledge.
Hymes, D. H. (1974). *Foundations in Sociolinguistics: An Ethnographic Approach*. University of Pennsylvania Press.
Pinker, S. (1994). *The Language Instinct: How the Mind Creates Language*. William Morrow and Company.
Skinner, B. F. (2014). *Verbal Behavior*. B.F. Skinner Foundation.

Doi: <https://doi.org/10.52133/ijrsp.v4.47.17>